الجَمال والخطاب الأدبي

أ/ سعيد نواصر
جـامعة أحمد دراية ـ أدرار

.

الملخص:

تعرض هذه الدراسة إلى بحث حيثيات التنظير للجمال في الفلسفة الإسلامية والتجربة الأدبية، وعلاقة الجمال بالقرآن، متطلعين من خلال ذلك إدراك تلك التقاطعات التي تربط علم الجمال بالقرآن الكريم والأدب، مما يضفي على الدراسة طابعاً معرفياً يفضي إلى أن عنصر الجمال ضروري في إظهار جوانب مظلمة للباحث تنير له الكثير من القضايا التي تهم الدراسات الجمالية.

Abstract:

this study to examine the reasons for the conceptualization of the beauty of Islamic Philosophy Literary Experience, and the relationship of the beauty of the Koran, looking through an awareness of those crossroads linking aesthetics Holy Quran and literature, which gives the study is knowledge broker lead to the picturesque element is necessary to show the dark aspects of the researcher enlighten a lot of issues that concern the Aesthetic Studies.

مقدمة

إن النظرة المعجمية للجمال ترتكز في أغلبها على أنه الحُسنُ و الروعة في المحسوسات و المجردات ، إذ نجد صاحب لسان العرب يذهب إلى أن: "الجَمَال مصدر الجَمِيل و الفعل جَمُل ، و قوله عز وجل : (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)[1] ، أَي بهاء و حسن، ابن سيده الجَمَال الحسن يكون في الفعل والخَلْق وقد جَمُل الرجُل بالضم جَمَالاً فهو جَمِيل و الجُمَّال بالضم و التشديد أَجمل من الجَمِيل وجَمَّله أَي زَيَّنه و التَّجَمُّل تَكَلُّف الجَمِيل و امرأَة جَمْلاء وجَميلة و هو أَحد ما جاءَ من فَعْلاء لا أَفْعَل لها قال وَهَبْتُه من أَمَةٍ سوداء ليست بِحَسْناء ولا جَمْلاء .

و في حديث الإسراءِ ثم عَرَضَتْ له امرأَة حَسْناء جَمْلاء أَي جَمِيلة مليحة ولا أَفعل لها من لفظها كدِيمة هَطْلاء و في الحديث جاءَ بناقة حَسْناء جَمْلاء قال ابن الأَثير: و الجَمَال يقع على الصُّوَر والمعاني ومنه الحديث إِن الله جَمِيل يحب الجَمَال أَي حَسَن الأَفعال كامل الأَوصاف ... "[2]

"و الجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم أستعمل في الصور، وأصل الجمال في العربية العظم، و منه قيل الجملة لأنها أعظم

من التفاريق، والجمل الحبل الغليظ و الجمل سمي جملا لعظم خلقته ، و منه قيل للشحم جميل لعظم نفعه."[3]

و جاء الخبر نفسه في أساس البلاغة للزمخشري" أن جمل فلان يعامل الناس بالجميل، وجامل صاحبه مجاملة، وعليك بالمداراة و المجاملة مع الناس،

---

1 - النحل: الآية 06.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة (جمل)، ج1، إعداد ,يوسف خياط،دار الجيل , بيروت، د,ط، 1988، ص 503.

[3]- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ج1، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 7، سنة 1991، ص 166.

ونقـول: إذا لـم يجمـلك مالك، لَمْ يُجِدْ عَلَيْكَ جمالك ، و أجمل في الطلب إذا لم يحرض ، و إذا أصبت بنائبة فتجمل أي اصبر. و جمل الشحم أذابه و اجتمل وتجمل : أكـل الجميل وهو الودك ، و ناقة جمالية : في خلق الجمل ألا ترى إلى قوله: كأنها جمل وهم ضخم ورجل جُماليٌّ : فطيم الخلق ضخم"[1].

أما في كتاب ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة فقد وردت كلمة "جمل" و جمع أجمال ، و جَامل و جُملٌ بالضمّ و جِمال – بالكسر – و جمالة – و جميلات مثلثين و جمائل ، و أجامل و الجامل: القطيع منها بِرعاته وأربابـه : أو القطيع من النوق... و الجميلُ: الشحم الذائب، و استجمل البعير: صار جملا، و الجمالـة مشـددة: أصحابهـا و ناقـة جُمالية بالضمّ : وثيقة.

– <u>ماهية الجمال بين الغرب والشرق</u>:

إن النظرة المعجمية للجمال ترتكز في أغلبها على أنـه الحُسـنُ و الروعة في المحسوسات و المجردات ، إذ نجد صاحب لسان العرب يذهب إلى أن : "الجَمَال مصدر الجَمِيل و الفعل جَمُل ، و قوله عز وجل : (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)[2] ، أَي بهـاء و حسن، ابن سيده الجَمَال الحسن يكون في الفعل والخَلْق وقد جَمُل الرجُل بالضم جَمَالاً فهو جَمِيل و الجُمَّال بالضم و التشديد أَجمل من الجَمِيـل وجَمَّله أَي زَيَّنه و التَّجَمُّل تَكَلُّف الجَمِيل و امرأَة جَمْلاء وجَميلة و هو أَحد ما جاءَ من فَعْلاء لا أَفْعَل لها قال وَهَبْتُه من أَمَةٍ سوداء ليست بِحَسْنـاء ولا جَمْلاء .

و في حديث الإسراءِ ثم عَرَضَتْ له امرأَة حَسْنـاء جَمْلاء أَي جَمِيلة مليحة ولا أَفعل لها من لفظها كدِيمة هَطْلاء و في الحديث جاءَ بناقة حَسْنـاء جَمْلاء قـال

---

[1] ـ الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة, ط5، 1973، ص 64.
2 ـ النحل: الآية 06.

ابن الأَثير: و الجَمَال يقع على الصُّوَر والمعاني ومنه الحديث إن الله جَمِيل يحب الجَمَال أَي حَسَن الأَفعال كامل الأَوصاف ... "[1]

"و الجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم أستعمل في الصور، وأصل الجمال في العربية العظم، و منه قيل الجملة لأنها أعظم من التفاريق، والجمل الحبل الغليظ و الجمل سمي جملا لعظم خلقته ، و منه قيل للشحم جميل لعظم نفعه."[2]

و جاء الخبر نفسه في أساس البلاغة للزمخشري" أن جمل فلان يعامل الناس بالجميل، وجامل صاحبه مجاملة، وعليك بالمداراة و المجاملة مع الناس، ونقول: إذا لم يجمـلك مالك، لَمْ يُجِدْ عَلَيْكَ جمالك ، و أجمل في الطلب إذا لم يحرض ، و إذا أصبت بنائبة فتجمل أي اصبر. و جمل الشحم أذابه و اجتمل وتجمل : أكل الجميل وهو الودك ، و ناقة جمالية : في خلق الجمل ألا ترى إلى قوله: كأنها جمل وهم ضخم ورجل جُماليٌ : فطيم الخلق ضخم"[3].

أما في كتاب ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة فقد وردت كلمة "جمل" و جمع أجمال ، و جَامل و جُملٌ بالضمّ و جِمال – بالكسر – و جمالة – و جميلات مثلثين و جمائل ، و أجامل و الجامل: القطيع منها بِرعاته وأربابه : أو القطيع من النوق... و الجميلُ: الشحم الذائب، و استجمل البعير: صار جملا، و الجمالة مشددة: أصحابها و ناقة جُمالية بالضمّ : وثيقة.

1- ابن منظور: لسان العرب، مادة (جمل)، ج1، إعداد ,يوسف خياط،دار الجيل , بيروت، د,ط، 1988، ص 503.

2- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ج1، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 7، سنة 1991، ص 166.

3 - الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة, ط5، 1973، ص 64.

و الجمـال: الحسن في الخلق و الخلق و الجملاء : الجميلة التامة الجسم من كل حيوان و تجمل : تزين – و أكل الشحم المذاب[1].

إذن فمـدار الجمــال معجميـا سـواء فـي لسـان العـرب أو أسـاس البلاغـة أو ترتيـب قـاموس المحـيط و غيـره علـى أنـه الحسـن فـي المـدركات بعـين البصـر ، أو المدركات بعين البصيرة .

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع الجمال قد حظي باهتمام الفلاسفة و المفكرين و الشعراء و أرباب الفنون منذ القدم ؛ و ذلك لارتباطه بأعمق الأحاسيس الإنسانية ، و لتأثيره الكبير على رؤى و أفكار الإنسان ، و تبعا لذلك فإن تحديد ماهية الجمال وتشريحه . إن صح التعبير . يحتاج إلى دراسة عميقة و متأنية تتجاوز غرض هذه الأطروحة.

و إذا أردنا الاستئناس بآراء القدامى لتحديد ماهية الجمال نبدأ بالغرب لأنه كان سباقا لإثارة مثل هذه المواضيع و الإشكالات ؛ فيطالعنا أفلاطون بوجهة نظر محلقة في عالم المُثل إذ " يفترض وجود مثال للجمال أو يرى أن العمل الفنّي نقل ومحاكاة، وأن الجمال في المثال جمال مطلق، أما في الأشياء فهو نسبي – و تكون الأشياء جميلة عندما تكون في موضعها ، و قبيحة عندما تكون في غير موضعها، ولكن الأشياء لا تنقسم إلى قسمين جميلة وقبيحة ، بمعنى أن ما ليس جميلا لا يكون قبيحا حتما، إنما هناك مرحلة يخلو فيها الشيء عن كلا الوضعين ، و مثال ذلك غير العالم لا يكون حتما جاهلا، وإنما هو وسيط بين طرفين متناقضين "[2] ، فالنظرة الأفلاطونية ترى في عالم المثل الجمال المطلق الذي ينبغي لكل ناشد للجمال أن يحاكيه ، فالجمال و القبح في

---

[1] ـ ينظر الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، ج1 ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، (د،ت) ط1979، ص 531.

[2] ـ عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر، ط 3 ، 1974 ، ص 37 .

هذه الرؤية يحدده عالم المثل، فبقدر اقتراب المحسوس و اللامحسوس إلى المثال بقدر ما يكون جميلا و العكس بالعكس .

أما أرسطو فيرجع جمال العمل الفني إلى قدرته على جعل المتلقي يشعر بعمق أنه أمام عين الحقيقة و ليس مجرد تقليد للمثال فـ " السبب في أن الناس يستمتعون برؤية الشبيه هو أنهم بتأملهم فيه يجدون أنفسهم يتعلمون و يستنبطون الأفكار، وربما يقولون آه هذا هو؛ ذلك لأنه إذا حدث أنك لم تر الأصل فإن المتعة لن يكون سببها التقليد وإنما هي ترجع إلى الإتقان أو اللون. " [1]

فأرسطو يرى في مهارة الفنان و قدرته على الصياغة و التشكيل و إنزال المثال إلى أرض الواقع أساس الإنتاج الجميل لدى الفنان ، فالاختلاف بين أفلاطون و تلميذه أرسطو ، هو أن أرسطو أنزل عالم المثل إلى الأرض فخلق بذلك جدليـة بين الإنسان والطبيعة أساسها التأثير و التأثر ، فالمنطق الأرسطي يقول : " كل شيء في الوجود هو محاكاة لمثال لا تقع عليه العين ، و كل عمل فني هو محاكاة لعمل جميل موجود ، أو متصور تقع عليه العين، أو يجلوه له الفكر أو يصوره له خياله وليس جمال الحياة قائما على جمال الموضوع ، فالجمال والقبح من مظاهر الطبيعة والحياة ، يمكن أن يمُدا أهل الفنّ بموضوعاتهم حتى يكون هناك جمال الجمال، أو جمال القبح، فيبدو الجميل أجمل مما هو، والقبيح أشد إثارة واشمئزاز"[2].

1 ـ عز الدين إسماعيل :الأسس الجمالية في النقد العربي ، المرجع نفسه ، ص 58 .
2 ـ مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر 1988 ، ص 59 .

ومهما يكن من شيء فإن الفنان يصور الشيء إما من أجل ترغيب المتلقي فيه و ذلك هو الجميل و الخيّر ، و إما من أجل التنفير منه و ذلك القبح و الشر [1] .

و من قبل أفلاطون و أرسطو نجد أن سقراط أخضع الجمال لمبدأ الغائية، وبات الشيء الجميل عنده ما كان له فائدة للإنسان ، والرائع في الفن ما كان نافعا " ... وأن موقع حسن الشيء من الروعة ما تناسب غاياته مع غاية النفع التي تصيب الإنسان ، على حين أن القبيح و الرديء هما لا جدوى منهما ولا نفع " [2].

و إذا تركنا أرض الإغريق جنوبا باتجاه منبع التراث العربي فنجد في كتاب المرشد إلى فهم أشعار العرب " بأن الجمال إحساس سار ، كل ما يسر النفس من طريق الحواس الخمس ، ولا سيما العين و الأذن هو جميل ، و الجمال خصال مدركة بالحواس ، و بخاصة هاتين الحاستين معا أو منفردتين من شأنها أن تسرّا النفس " [3].

و قد ارتبط الجمال عند الجاحظ بالمنفعة إذ يصف حسن النار بالقول : "... وكيف حال النَّار في حسنها ، فإنّه ليس في الأرض جسمٌ لم يصبغ أحسن منْه ، ولَوْلاَ معرفتهُمْ بقتْلها و إحْراقِها وإتلافها ، و الألم و الحُرْقةِ المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحُسْن عِنْدَهُمْ ، و إنَّهم ليَرَوْنَها في الشِّتاءِ بغير العُيونِ التي

---

1 ـ ينظر كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة تلمسان ، السنة الجامعية : 1993 – 1994 ، ص 39 .

2 ـ كريب رمضان : بذور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، الجزائر ، د.ت ، د.ط,ص16.

3 ـ عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار الفكر ، بيروت د.ت ، د.ط ، ص 487 .

يرونَها بها في الصَّيف ، ليس ذلك إلاَّ بقدْر ما حدَثَ من الاستغناءِ عنها "[4] فنظرة الجمال في التراث العربي نظرة موضوعية يلعب البصر و السمع ركيزتا استشعاره ، لهذا كان التركيز في القرآن الكريم ـ المنزل بلسان عربي مبين ـ على عرض الطبيعة بمختلف مظاهرها عرضا يشبع السمع و البصر ، فقد نفخ الله تعالى في الكلمة القرآنية من روحه كما نفخ من قبل في آدم و عيسى عليهما السلام ، فإذا الكلمة حية تسعى .

و يضيف الغزالي إلى بعد المنفعة بعدا آخر ، إذ يرى أن " ... كل جمال محبوب عند مدرك الجمال و ذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، و اللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها، ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، و إدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته ، و كيف ينكر ذلك و الخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب المـاء و تؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ " [1] .

و لاشك أنه حين تقضى الحاجات المادية يتكون الإحساس بالجمال لذاته .

و إذا كان أفلاطون يرى في عالم المثل المعيار المطلق لكل جمال ، فإن الرؤيا العربية الإسلامية تذهب إلى أن الله عز و جل هو مصدر كل جمال و حسن يقول أبو حيان التوحيـدي في معرض حديثه عن صفات الله تعالى " ... هي من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شيء من المستحسنات؛ لأنها هي سبب حسن كل حسن وهي التي تفيض بالحسن على

---

4 ـ الجاحظ : الحيوان ، تح :عبد السلام هارون ، ج4 ، مكتبة الخاتجي ، القاهرة ، ط1 ، 1952 ، ص96.

ـ الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1986 ، ص306[1] .

غيرها ، إذ كانت معدنه ومبدأه ، وإنما نالت الأشياء كلها الحسن و الجمال والبهاء منها وبها" [2] .

و ينحو الغزالي نفس النحو حين يقول " ... بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول و الأبصار و الأسماع و ستائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضه و من ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته و لمعة من أنوار حضرته. " [3] فالجمال إذا هو الجمال الإلهي، وهو من صفات الله الأزلية ، و العالم كله كمرآة انعكس على صفحتها هذا الجمال السرمدي .

و إذا اتجهنا إلى الدراسات الحديثة التي عنيت بالجمال نجد اتجاهات شتى وآراء متعددة ، فويكلمان (Wikelman) يرى " أن الجمال صفة تطلق على كل ما يعطي لذة منزهة عن الغرض، فهو كالمياه الصافية المستقاة من عين صافية ، و هي تكون صالحة للشرب كلما كانت خالية من الطعم ." و قريب من هذا ما قاله شارل لالو (Charles Lalo) " الجمال هو إشباع منزه عن الغرض، هو لعب حرّ واتفاق لملكاتنا أي توافق بين خيالنا الحسي ، و بين عقلنا"، فالنشوة المنزهة عن الغرض هي عين الجمال، و ثمة من يرى أن الجمال ينشأ من داخل المحسوسات أو المجردات ، إذ يعزف كانط (Kant) على هذا الوتر فنجده : " يلح على أن تشكل العمل الجمالي بقوانينه الداخلية الخالصة ، هو العامل الوحيد في الحكم عليه بالجمال و القبح ، و عنده أن الجميل هو الذي يكون ممتعا بالضرورة وبصورة كلية و شاملة ، دون مفهوم ، و هذه المتعة مقطوعة الصلة بأية فائدة مهما كانت" [1]، بينما نجد من

---

[2] ـ التوحيدي: الهوا مل و الشوامل ، تح: أحمد أمين و أحمد صقر، لجنة التأليف و النشر و الترجمة، القاهرة ، ط1،1952، ص43.

3 ـ الغزالي :إحياء علوم الدين ، المرجع السابق ، ج2 ، ص117 .

1 ـ مجلة عالم الفكر : العدد 1 ، وزارة الإعلام ، الكويت ، سبتمبر ، 1998 ، ص 110 .

يجعل الشعور بالرضى هو الحَكَم بين الجمال و القبح نجد ذلك مثلا عند وليام – ك ، م (William) فيرى : "أن الشعور بالرضى في حضرة الجمال هو شعور بالاتحاد و بالتفاعل المتناغم بين الإحساس و العقل و هو التحرر الكامل من الضرورة العملية والنفعية"[1]. و يتفق معه هيوم (Hyoum) في ذلك إذ يرى " أن الجمال هو انتظام الأجزاء و تناسقها إما بفعل طبيعتها الأصلية أو بفعل التعود ، أو بفعل الرغبة و بشكل يعطي لذة ورضا نفسيا "[2] .

و قريبا من ذلك يذهب رتشاردز(Richardz) بالقول : " إن الجمال تجربة أو حال في الجمهور و انه ليس " شيئاً " غامضاً كامنا في العمل الفني نفسه"[3].

من خلال ما سبق ذكره نلحظ صعوبة الاتفاق على معنى موحد لماهية الجمال و ذلك الشأن في كل ما يتعلق بأعمق مشاعر الإنسان كالحب و البغض وغيرها، فالجمال مرتبط بالجانب الذاتي بمعنى أن كل فرد يقوم بتحديد مقاييس الجمال الخاصة به و بالتالي فهو يستمتع بالجمال من وجهة نظره التي تختلف مع غيره ، بمعنى أن الجمال ليس صفة مطلقة بل هو نسبي، وبالتالي فلا يمكن تحديده.

<u>– فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية :</u>

جاء لفظ الجمال في القرآن في مواضيع كثيرة نذكر منها:

قال تعالى: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ) "[4].

---

1 - وليام ك،م : تاريخ موجز النقد الأدبي، تر: حسام الخطيب ، ج3 ، ط1 ، 1975 ، ص 539 .

2 - نونكس : النظريات الجمالية - تح: محمد شفيق ، بيروت ، ط1 ، 1985 ص46 .

3 - ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، تر: إحسان عباس، ج2، دار الثقافة، بيروت ، ط1، 195، ص119 .

4 - سورة يوسف : الآية 18.

وقال تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) "[1] .

وقال تعالى : (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)[2].

وقال تعالى: (فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)[3].

وقال تعالى : (فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)[4]

وقال تعالى : (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا)[5].

وقال تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)[6].

نجد في كتاب فروق اللغة لآبي هلال العسكري : " إن الجمال هو ما يشتهر و يرتفع به الإنسان من الأفعال و الأخلاق و من كثرة المال و الجسم "[7].

و في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي "ورد أن لفظ الجمال بمعنى الحسن و ما اشتق منه ، ذلك أن الجمال يستعمل في موضع الحسن فيقال : وجه جميل ووجه حسن و أن فلانا حسن أو جميل ولا تراد صورته ، و إنما يعني جميل الأخلاق"[8].

و يتجلى لنا من خلال ذلك أن لفظة الجمال من الجانب الإسلامي تعني حسن الشيء أو الخلق أو ما اتصف بالصفات الحسنة و منه قوله تعالى : (الَّذِي

1- سورة النحل : الآية 6.
2 - سورة الحجر : الآية 85.
3 - سورة الأحزاب : الآية 28.
4 - سورة الأحزاب : الآية 49.
5 - سورة المعراج : الآية 5.
6 - سورة المزمل : الآية 10.
7 - أبو هلال العسكري : الفروق في اللغة ، المصدر السابق ، ج1، ص 257 .
8 - مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر ، 1988 ، ص74.

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) ، "[1]. و اقترنت لفظة الجمال بمعنى الخلق في قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) "[2].

و من ثم يتضح لنا مفهوم الجمال في القرآن الكريم بمعنى الشيء الظاهر للعيان و المثير للإحساس ، و الذات الإنسانية تجد في خالقها ما يرضيها و يجتذبها إليـه و يحسن إليها ، و الفلاسفة القدماء تعرضوا في نظرياتهم الشعرية إلى فن الشعر الموسيقي كأرسطو و سقراط و أفلاطون ، حيث أضافوا فيها نظرية المحاكاة اليونانية إضافات مهمة إلا أنهم لم ينصرفوا إلى نظرية الجمال عند العرب[3].

نطالع في كتاب إخوان الصفا و خلان الوفاء " أن المهارة في أي عمل – ما هي إلا محاولة التشبه بالخالق الكريم"[4].

ونحاول عرض مفهوم الجمال عند مفكري و علماء الإسلام الذين أعطوا مفاهيم مختلفة و تصورات للجمال ، حيث ذهب كريب رمضان إلى أن الجمال لم يبلور في نظرية عند العرب ولم يتخذ أبعادا حقيقية من شأنها أن تجليه و تعمقه ، فقد ظل مفهوما بسيطا ، إذا لم نقل ساذجا، أما جهود الفلاسفة في دراسة نظرية المحاكاة و إضافاتهم فتكاد تكون شروحا و هوامش لا تمس جوهر الأشياء إلا في النادر[5].

وأبو حامد الغزالي يؤكد تفاعل الحواس مع القلب والعقل بقوله:" يدرك الجمال الحسّي بالبصر و السمع و سائر الحواس أما الجمال الأسمى فيدرك

---

1 ـ سورة السجدة : الآية 7.
2 ـ سورة النحل : الآية 6.
3 ـ ينظر مجلة الوحدة : المرجع السابق، ص74 .
4 ـ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، ج1 مطبعة موفم ، الجزائر ، 1992 ، ص 350 – 377 .
5 ـ ينظر كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، المرجع السابق ، ص ص 50 .

بالعقل و القلب أما إن كان الجمال يتناسب مع الخلقة و صفاء اللون فإنه يدرك بحاسة البصر ، وإن كان الجمال بالجلال و العظمة و علو الرتبة ، و حسن الصفات و الأخلاق ، وإرادة الخيرات لكافة الخلق و إفاضتها عليهم على الدوام فيدرك بحاسة القلب"[1]. ويرى أن القلب أشد إدراكا من العين ، فالقلب يدرك الأمور الشريفة الإلهية و أن المثل الأعلى للجمال هو الله ، و جمال الله سبحانه أكمل الجمال[2].

فالملاحظ أن إدراك الجمال عند أبي حامد الغزالي يتجلى عن طريق الحواس ، إذا ارتقى يدرك عن طريق القلب و إذا اشتمل على عناصر موضوعية يدرك عن طريق العقل .

أما تصور الفرابي للجمال فيتجلى من خلال قوله:" الجمال و البهاء والزينة في كل موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل ، و يبلغ استكماله الأخير ، و إذا كان الأول وجوده أفضل الوجود فجماله إذن فائق لجمال كل ذي جمال ، و كذلك زينته وبهاؤه و جماله بجوهره و ذاته و ذلك في نفسه و بما يعقله من ذاته"[3].

فالفرابي يوضح بإجلال بأن الخالق هو الأول و جماله فوق كل جمال و هو لا يمايز بين لفظ الجمال و البهاء و الزينة فالكل في نظره واحد .

و الغزالي يؤكد " أن لا خير ولا جمال و لا محبوب في العالم إلا و هو حسنة من حسنات الله و إلا آثار من آثار كرمه ، و غرفة من بحر جوده،

---

1 ـ علي شلق : الفن والجمال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، د.ت، د. ط ، 1974 ص 74 – 75 .

2 ـ ينظر علي شلق : الفن والجمال ، المرجع نفسه، ص 75.

3 ـ الفرابي : كتاب السياسة ، تح : فوزي نجار ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، د.ط ، 1964 ، ص 46

سواء أُدرك هذا الجمال بالعقـول أو بالحواس ، و جماله تعالى لا يتصور له ثان ، لا في المكان و لا في الوجود"[1].

و هذا القول يلتقي مع ما جاء به القديس أوغسطين في قوله:" أن الله هو الفنان العظيم الذي يعطي الشكل و الجمال و النظام كل شيء بحسب قوانينه الخاصة إن الله حقيقة كل جمال بل أعظمه"[2].

فجمال الله في نظر هؤلاء جمال نقي صافي ، و لا تصور له ، و أن الله هو الذي يعطي الشكل و النظام ، و الجمال.

إن فلسفة الصوفيين المسلمين رأت أن الإنسان في إمكانه أن يتقرب إلى الله روحيا عن طريق الحياة المتقشفة و النسك و تنقية الروح من كل الشوائب الدنيوية ، و تقرب الإنسان من الله تقربا يجعله يعرف الجمال الأصيل المتمثل بالجمال الأعلى معرفة حقا ، و يكتشف أن جمال العالم المادي ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي[3].

و من هنا تظهر أوجه التشابه بين الفلسفة الإسلامية الصوفية و الفلسفة الأفلاطونية اليونانية في فهم الجمال التي ترى أن الجمال الحقيقي ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي، فهم يركزون على الجانب الحسي في فهم الأشياء وتأويلها إلى خالقها كما كان يراها أفلاطون وغيره.

و النتيجة العامة التي نستخلصها من النصوص السابقة هو أن نظرة الفلاسفة المسلمين للجمال تمثل موقفا دينيا ، و الجمال عندهم يدرك بالحواس و يقع في المحسوسات ، و الجمال يرى بالعين و يدرك بالعقل و القلب و يدعون إلى السمو والرفعة عن الأشياء المادية و التعلق بما هو أعلى و أعظم

---

1 ـ أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ،ج 4 ، المصدرالسابق ، ص 254 .
2 ـ نيكون أوفسيا : موجز تاريخ النظريات الجمالية ، ترجمة: باسم السقا ، دار الفرابي ، بيروت ، ط 2 ، 1979 ، ص 76 .
3 ـ ينظر علي شلق : الفن والجمال ، المرجع السابق ، ص 94- 95 .

وهو الواحد الأحد الأزلي، و يتجردون من كل ماله علاقة بالمادة أو ملذات الحياة الدنيوية .

– <u>التجربة الجمالية في الأدب</u> :

إن ثمة علاقة جوهرية بين الجمال و الأدب – باعتباره أحد الفنون – حتى إن بعض الدارسين يعرفون الأدب بأنه نشاط لغوي يستهدف توكيد الحياة التي تحدث متعة جميلة ، " ربما متأثرين بنظرة كانط (Kant) المتوفى سنة (1804م) الذي قرر أن الفن عمل يهدف إلى المتعة الجمالية الخالصة ، أي أنه حر لا غاية وراءه سوى اللذة الفنية ، و ربما كان هذا هو المعنى الذي خلص إليه بعض أدباء العرب حين قالوا :" إن الشعر أنفذ من السحر" و كان الرسول ρ قد قال : (إن من البيان لسحرا)[1]*.

" و إننا نكاد نجد اتفاقا على أن التجربة الجمالية لا يمكن أن تكون جمالية ، حتى تتحرر من الشواغل المادية و الإيديولوجية الملحة ، أي توفر صفة اللانفعية التي تقضي أن تتوجه الذات إلى موضوعها دون رغبة في استهلاكه المادي أو تخديمه العملي أو الإيديولوجي"[2].

غير أن الجمال لا يتناقض مع المنفعة ما دامت المنفعة مشروعة ، إذ يمكن أن تساهم التجربة الجمالية في الأدب الراقي في توجيه الناس نحو المنافع المشتركة فيقضى بذلك على الأثرة و الأنانية التي شوهت وجه العالم .

---

[1] ـ أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، دار النهضة العربية ، بيروت، د ط، 1981، ص 76 .

* (رواه الترمذي وأبو داود)، أنظر "موسوعة الحديث الشريف" الإصدار الثاني، شركة صخر لبرامج الحاسب، 1997 السعودية.

[2] ـ سعد الدين كليب: مجلة الموقف الأدبي شهرية يصدرها إتحاد الكتاب العرب ، العدد294، دمشق ، تشرين الأول ، 1995 ، ص 71 .

" إن التجربة الجمالية ، عالم قائم بذاته و تصدر من موقف حسي انفعالي مصوغ بشكل مجازي تخييلي ، و من وعي جمالي يتعامل مع الواقع من خلال المثل الأعلى للجمال في الفرد و المجتمع "[1].

" و في التجربة الأدبية تتجلى ثلاث مستويات :

1- مستوى مادي ، لأن بها مكونات حسية مدركة .

2- مستوى نفسي و يتصل بها مكونات حسية .

3- مستوى واعي وهو الخاص بعملية التنظيم و التحديد و الحصر" [2].

و يضيف إلى ذلك ريني ويليك (René Wilik) شيئا آخر " ليست المسألة أن تعرف أية عناصر بل و كيف وضع بعضها مع بعض ، ولأية وظيفة – لأن هذا يحدد ما إذا كان عمل من الأعمال أدبيا – أم ليس أدبا " [3].

فعلاقة الأدب بالجمال تبرز من خلال التوازن الصوتي و الإيقاعي الخلاق ، وبالتركيز على الصور البلاغية التي ترسم خلجات النفس و صدى الطبيعة ، فالأديب في تجربته الفنية يستخرج أجمل ما في الطبيعة من محاسن ، و أفضل ما في النفس من مشاعر .

" وأما الشاعرية فهي فنيات التحول الأسلوبي وهي استعارة النص لتطور الاستعارة الجميلة، حيث ينحرف النص عن معناه الحقيقي إلى معناه

---

[1] ـ المرجع نفسه : ص 78 .

[2] ـ سعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، دار النهضة العربية بيروت ، سنة 1984 ، ط 1، ص 56 -57 .

[3] ـ محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، د ط، 1975 ، ص 31 .

المجازي وهذه سمة لأي تعبير بياني، وأما القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها فإنها لا تشكل القيمة الحقيقية للتجربة الأدبية " [1].

و يؤكد كانط (Kant) " أن الذوق هو دائما مادة الشعور بكل ما نبصره أو نسمعه أو نتخيله، وهو يصدر حكمــه بالرضى أو بعدم الرضى على موضوع ما مبتعدا ما وسعه عن الهوى ، و متفتحا في الوقت نفسه على الكمال و المثال دون أية محاولة لجعل الجميل كاملا أو مثاليا ، و إنما حسبه أن يكون سبيلا إلى تصور مثال الكمال على أي حال ، و على هذا النحو يكون أمامنا متذوق و موضوع له مادته و متعته الفنية ، و كلها تتعاون على إصدار الحكم الجمالي الذي لا يمكن أن يكون متعسفا ، و الذي لا يتحرر فقط من موضوع العمل الأدبي " [2].

" فالتجربة الأدبية تجربة لغة ، و عند الأديب تصبح اللغة وسيلة للتعبير والخلق بموسيقاه و ألوانه و فكره ، و مادته التي سوى منها كائنا ذا ملامح وسمات، كائنا ذا نبض و حركة " [3].

و من تم نجد أن الخطاب اللغوي صنع من فضاء التشبيه و الاستعارة فضاءا للصورة المكثفة ، بينما كانت الاستعارة تقوم على التشابه المنطقي بين شيئين ، فقد أخذت الصورة الآن تدور في فلك المجاز الذي يتجاوز المنطق و الخضوع للعقل ويدخل في ملكة الغرابة و الغموض، فيصير أصابع سحرية يراقص الأشياء ويلتقطها و يحولها كما يشاء فيبعث الحياة في النفوس الجامدة ، و يؤجج العواطف الميتة ، و ذهب أدونيس للقول : " و في الإبداع الشعري

---

[1] ـ محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، المرجع السابق ، ص 32 .

[2] ـ أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ،المرجع السابق, ص 78-79 .

[3] ـ عبد الله الغذامي : الخطيئة و التكفير ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة السعودية ، ط1، 1985 ، ص 24.

يصل غنى هذه اللغة إلى أوجه و تصبح غاية شاسعة كثيفة في الإيقاع والإيحاء و التوهج لا حد لأبعادها"[1].

" ففي التجربة الجمالية لا يمكن أن تظهر الذات بدون موضوع و لا الموضوع بدون ذات ما دام الشيء واحدا ، هذا التوحد ، بينهما يعد ملمحا أساسا في التجربة الأدبية ، حيث يحدث تفاعل بينهما نتيجة التأمل العميق ، و كل هذا يتم بواسطة المخيلة " [2].

" فالشاعر في تجربته يعبر عن رؤية شمولية للحياة ، و مفاهيم محددة عن الإنسان و موقفه من الحياة و الواقع ، و أما الذوق فهو في الأصل ملكة تدرك بها طعوم الأشياء ، و اصطلاحا أداة الإدراكات التي تثير في نفس المتذوق لذة فنية ، وقد تحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، فقرر أنه حصول ملكة البلاغة للسان فكما أنه حسيا علاج الأشياء باللسان للتعرف على طعمها تعالج الأشياء فنيا ، بالنفس للتعرف على ما فيها من جمال ، فهو بإيجاز القوة التي يقدر بها الأدب من حيث هو فن " [3].

و مهما تغيرت أفكار العصر و قيمه فلن تتغير القيم الأساسية للعمل الفني ، فقد نرى الأدباء في عصرنا الحاضر يهتمون بعالم الفن و السياسة و يشاركون في أحداث العصر ، و يدعون إلى توجيه الأدباء نحو المجتمع ، و إلى المساهمة بجهودهم في تغيير الواقع الذي هم عليه ، و لكن هذا كله لا يعني أن اختيار موضوع معين يتصل بالسياسة أو المجتمع أو قضية من قضايا الوطن يبتعد عن كونه عملا فنيا .

---

[1] ـ أدو نيس: مقدمة الشعر العربي ، دار القلم ، بيروت ، ط5 ، 1986 ، ص 108.

[2] ـ كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، المرجع السابق ، ص93 .

[3] ـ أحمد كمال زكي :النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، المرجع السابق ، ص 77.

" فاللغة هي وسيلة الأديب للتعبير و الخلق ، و هي موسيقاه و ألوانه و فكره ، و المادة الخام التي سوى منها كائنا ذا نبض و حركة و حياة و ملامح و سمات ، كائنا أبدعه الشاعر أو القصاص أو المسرحي من ذاته كائنا يحمل صورة حية ، كما يحمل الحجر صورة نابضة لتمثال بارع، فكذلك اللغة في يد الأديب قادرة على أن تحمل صورة نابضة حية ، ذلك هو معنى الإبداع الأدبي ، إنه سيطرة الأديب على اللغة بما يضفيه عليها من ذاته وروحه " [1].

فالتجربة الجمالية في الأدب خلق و إبداع ، و تفجير لطاقات النص من أجل خلق وعي جمالي منسجم مع الكون و الحياة و الإنسان ، ذلك الانسجام الذي نجده في حنايا الكون و قلب الطبيعة .

– بين الجمال و الخطاب :

إن الكلام عن علم الجمال يعني أيضا الحديث عن موقف الإنسانية من خالقها، و من ذاتها و من الكون المحيط بها ، فغاية علم الجمال هو إعادة بناء العلاقات بناءا جماليا ، ينسجم مع الجمال المطلق ، و حينها يكون علم الجمال " مجموعة الأدوات المعرفية التي تمكن صاحبها من دراسة المواقف التي يتخذها الإنسان من مظاهر الكون و المجتمع في إطار العقيدة الدينية ، و يعبر عنها في أشكال متعددة تمتد من سلوكه اليومي البسيط إلى أنواع الفنون في إطار المجتمع و التراث"[2].

فعلم الجمال مرتبط بالجانب الذاتي عند الإنسان و لكل فنان أدواته التي يبرز بها تجربته الجمالية التي ما هي في الحقيقة إلا نشدان للكمال في عالم الفن ، والتذوق الجمالي كما رأينا سابقا فعل منعكس ، يصدر عن النفس التي تستجيب للمثيرات الجمالية بما فيها من جمالات فطر الله الناس عليها.

---

[1] ـ المرجع نفسه ، ص 56 .

[2] ـ حسين الصديق : فلسفة الجمال رسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط1 ، 2003 ، ص22 .

لقد اقترن الخطاب بالجمال في العمل الأدبي و قد وردت مادة خطب في لسان العرب " أن الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام ، و قد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا ، و هما يتخاطبان ، و المخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك و المشاركة في فعل ذي شأن ، قال الليث : إن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر، قال بعض المفسرين في قوله تعالى "و فصل الخطاب" قال : هو أن يحكم بالبينة أو اليمين و قيل: معناه أن يفصل بين الحق و الباطل ، و يميز بين الحكم و ضده ، وقيل فصل الخطاب : الفقه في القضاء "[1].

و يرى الزمخشري أنه يجوز أن يراد بمعنى الخطاب في الآية :" القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ، و لا إشباع ممل ، و يقول خطبه أحسن الخطب و هو المواجهة بالكلام"[2]. فالخطاب من المخاطبة على وزن المفاعلة فهو يقتضي التفاعل بين شخصين أو أكثر ، بين مرسل و متلقي ، و هذا التفاعل إما أن يخلق إحساسا بالمتعة و الجمال و القبول ، و إما أن يولد شعورا بالسأم و القبح و النفور ، وكثيرا ما ارتبط الخطـاب بالخطابة كجنس أدبي تتجلى فيه البلاغة و القدرة على التأثير في المخاطبين .

كما يرتبط المفهوم الرابط بين الخطاب والخطابة عند أرسطو طاليس في حديثه عن مكوناتها فيقول: " أما التي ينبغي القول فيها على مجرى الصناعة فثلاث: إحداهن الأخبار من أي الأشياء تكون التصديقات و الثانية ذكر التي

---

[1] ـ ابن منظور : لسان العرب ، مادة (خَطَبَ) ، المصدر السابق ، ج2 ،ص 856 .

[2] ـ الزمخشري : الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ج 1، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ط,د.ت,ص 125 .

تستعمل في الألفاظ ، و الثالثة هو أنه كيف ينبغي أن ننظم أو ننسق بين أجزاء القول"[1]

و قد عدها الجاحظ جنسا من البلاغة فالخطابة تركز على عملية الإقناع التي يختص بها الباث إزاء المتلقي أو السامع قصد إثارة عواطفه ، أما ما يستمد منه الخطاب في جانبه النظري في كونه اليوم يطرح كآلية فعالة في الفكر الإنساني أمام أي طرح أو نقاش و هو الآن الآليــة و الرهان الذي بادر و يبادر النقد الأدبي الحديث و المعاصر في عرضه التحليلي أو هو نقطة تقاطع و تلاقي بين تحليل النصوص و الإجراءات التطبيقية التي تهتم كثيرا بالمعني في شكلــه و بنائه ، وفي تجاوز ما يقوم النص بطرحه إلى الكيفية التي يتبعها النص في المعنى الذي يطرحه .

أما في الدراسات اللغوية و اللسانية في الغرب فقد عرف هذا النوع "الخطاب" تفاعلات لاسيما بعد ظهور كتاب فرديناند دوسوسير (Fredinand de saussire) محاضرات في اللسانيات العامة متضمنا المبادئ الأساسية التي جاء بها هذا الأخير و أهمها :

1- التفريق بين الدال و المدلول .

2- اللغة ظاهرة اجتماعية .

3- الكلام ظاهرة فردية . و بلورته لمفهوم "النسق" أو "النظام" الذي تطور فيما بعد إلى بنية ، و قد تعددت مفاهيم الخطاب ومدلولاته نورد بعضها :

الخطاب مرادف للكلام عند فريديناند دوسوسير (Fredinand de saussire) وهو المعنى الجاري في اللسانيات البنيوية[2]. أما حسب

---

[1] ـ أرسطو طاليس : الخطابة ، تر : عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط1، 1983، ص 181.

[2] ـ ينظر سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ، ط2، 1993 ، ص12 .

"بينفينيست"(Binnifinnist): " هو كل مقول يفترض متكلما و مستمعا و عند الأول هدفه التأثير على القارئ بطريقة ما "[1].

والخطاب حسب ميشال فوكو " نظام تعبير متقن ومضبوط"[2]

و بعضهم يعطي للخطاب معاني أخرى لما يجعل منه مرادفا " للنص" أو " المقول" ومن هؤلاء " جوليان قريماس" (Jullian Grimasse) على أن استعمال هذا الأخير للنص كمرادف للخطاب ليس من باب التبسيط، كما يرى بعض الدارسين أن قريماس ، " إذ يفعل ذلك إنما يستند إلى الاشتراك الفعلي للفظتين في أداء المعنى ذاته (ترادف) فبعض اللغات الأوربية لا تتوفر على لفظ يقابل لفظتي"Discours" الفرنسية و"Discourse" الإنجليزية ، و يشير إلى أن "خطاب" و"نص" تستعملان تبعا لذلك للدلالة على ممارسة خطابية غير لغوية ، كالطقوس المختلفــة والقصص المرسومة"[3] .

وثمة علاقة و طيدة بين الخطاب و الأدب الجمالي ، و الخطاب له مقاييس تميزه أي هناك شروط وخصائص و مقاييس تجعل منه خطابا أدبيا ، و هو ما جعل بعض الدارسين المحدثين يرون بأن هدف "علم الأدب ليس دراسة الأدب ، بل دراسة أدبية الأدب"[4]

و في السياق نفسه يقول " بوريس ايخمباوم " (Bouriss Eikhenbaoum)" لقـد اعتبرنا و لا نزال نعتبر أن الشرط الأساسي لموضوع

---

[1] - المرجع نفسه ، ص 19 .

[2]- فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث ,دراسة في تحليل الخطاب ,المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ,ط1,2003 ,ص40.

[3]- Grimas (AJ) et courtés (j) ; sémiotique , dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ed , Hachette , Paris , 1979.voir discours p102.

[4]- Todorov Tzeventan , les catégories du récit littéraire inco-uniqtion 8, coll. Ed du seuil , Paris 1981, p 131.

العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي يميزها من كل مادة أخرى و هذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بوساطة بعض ملامحها الثانوية أن تعطي مبررا لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد "[1] .

و يعرف "عبد السلام المسدي" الخطاب الأدبي بأنه : "خلق لغة من لغة" أي أن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة ، و هي لغة الخطاب الأدبي و يمكن أن نقول : "إن الخطاب الأدبي هو تحويل لغة عن لغة موجودة سلفا، و تخليصها من القيود التي يكبلها بها الاستعمال و الممارسة ، فالخطاب الأدبي بهذا المعنى : كيان عضوي يحدده انسجام نوعي ، و علاقة تناسب قائمة بين أجزائه"[2] ، و الخطاب الأدبي نظام إشاري معقد و مركب ، و ليس بسيطا ، كما هو الحال في نظام إشارات المرور الضوئية مثلا ، فالنظام الأدبي معقد بالنظر إلى تعقد تكوينه و العوامل المؤدية إليه معا ، " فمن حيث التكوين يتشكل النص الأدبي من مجموعة من الأنظمة الفرعية الداخلية المرتبطة تماما بمجموعة من الأنظمة الكلية والفرعية الخارجية هناك في التشكيل اللغوي للنص ، و هناك النظام الصوتي بفروعه و هناك النظام المعجمي ، و هناك النظام النحوي و النظام المجازي و هي كلها أنظمة تشكل رؤية الكاتب ، و منها جميعا تتشكل دلالة النص الكلية "[3].

أما مفهوم الخطاب الأدبي كما يراه محمد مفتاح فهو :

---

[1] ـ سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المرجع السابق ، ص22.

[2] ـ عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب، تونس، ط 2، 1984 ، ص 107.

[3] ـ المرجع نفسه ، ص11.

1) " مدونة كلامية : يعني أنه مؤلف من كلام ، و ليس صورة فوتوغرافية أو رسما أو عمارة أو أزياء ، و إن كان الدارس يستعين برسم الكتابة و فضائلها و هندستها في التحليل .

2) حدث : إن كان خطابا ، هو حدث يقع في زمان و مكان معينين لا يعيد نفسه إعادة مطلقة مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي .

3) تواصلي : يهدف إلى توصيل معلومات و معارف و نقل تجاربه إلى الملتقي .

4) تفاعلي : على أن الوظيفة التواصلية في اللغة، ليست هي كل شيء فهناك وظائف أخرى للخطاب اللغوي ، أهمها الوظيفة التفاعلية التي تقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع و تحافظ عليه .

5) مغلق : و نقصد به انغلاق سمته الكتابية الأيقونة التي لها بداية و نهاية و لكنه من الناحية المعنوية هو :

6) تداولي : إن الحدث اللغوي ليس منبثقا من العدم ، و إنما هو متولد من أحداث تاريخيـــة و نفسانية و اجتماعية و لغوية... و تتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له ، فالخطاب إذن مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة "[1].

و يرى"بياجرو" (Piagero) أن الخطاب " يفرز أنماطه الذاتية و سننه العلامية و الدلالية فيكون سياقه الداخلي هو المرجع ، ليقيم دلالاته حتى لكأن الخطاب هو معجم لذاته"[2] .

كما ينحو " ر. ل. فاغنر" (Fagner) المذهب نفسه ، " فيرى أن الخطاب الأدبي صياغة مقصودة لذاتها ، و لغته تتميز عن لغة الخطاب العادي أو النفعي بمعطى جوهري لأنه مرتبط بأصل نشأة الحدث اللساني في كلتا الحالتين

---

[1] ـ محمد مفتاح :تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص، دار التنوير، بيروت، ط1 ، 1985، ص 120.

[2] ـ عبد السلام المسدي :الأسلوبية و الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 16.

، فبينما ينشأ الكلام العادي عن مجموعة انعكاسات مكتسبة بالمران و الملكة نرى الخطاب الأدبي صيغ للغة عن وعي و إدراك. "[1].

فليس في الأشكال الأدبية كالسرد مثلا أو الوصف و التشبيه ما يجعلها أدبية محضة ، فقد تصادفها في أنواع أخرى من الخطاب ، مما يؤدي إلى استحالة وجود قوانين خاصة بالخطاب الأدبي ، و بالتالي تجريد مصطلح الأدبية من معناه السابق ، وتعويضه بالإيحاء الاجتماعي الذي يختلف باختلاف الثقافات و العصور.

و حسب عبد السلام المسدي فإن" الخطاب الأدبي ينتمي إلى صاحبه من حيث أنه كلام مبثوث ، أما أدبيته فهي بالأساس وليدة تركيبة الألسنة ، أي وليدة ما ينشأ بين العناصر اللغوية من أنسجة متنوعة متميزة ... و من هنا يمكن الإقرار بأن سمة الأدبية في الفن لم تعد محصورة في بعض أجزائه دون الأخرى ، و لا فيما يتولد عن بعضها من صور أو انزياحات ، و إنما هي ثمرة لكل بناء خطابي حتى و لو تجلت ظاهريا في شكل مقطع محدد منه ... فأدبية الخطاب وليدة التركيبية الكلية لجهازها اللغوي انطلاقا من الروابط القائمة فيه الضابطة لخصائصه البنيوية "[2].

و الذي يهمنا أن ثمة علاقة بين الجمال و الخطاب ، لأن عملية التذوق تقتضي وجود طرفين، الطرف الأول هو الإنسان و الطرف الثاني هو الموضوع الجمالي فإن ثمة فعلا منعكسا يصدر عن الإنسان يعبر عن تفاعل الذات الإنسانية مع الموضوع الجمالي ، حيث تتعطل ملكاتها العادية و تتوقف عن التفكير ، فالتذوق الجمالي يبدأ أولا بالحس ، و يعبر عنه بالانفعال ثم ينتقل ثانيا إلى العقل في عملية الإدراك و التقويم الجماليين .

---

[1] ـ المرجع نفسه ، ص 11.

[2] ـ عبد السلام المسدي :الأسلوبية و الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 88-89.

و يرى " حسن الصديق" : على الأديب ألا يكتفي بالثقافة التي تغني فكره ، وتوسع دائرة تجاربه ، و تفيده في مضمون فنه ، و إنما عليه أيضا أن يهتم بجمال أداته اللغوية فيتجنب في كتابته الكلمات الممجوجة الثقيلة على السمع ، و يبتعد عن التكليف أو يهرب من أسلوب أصحاب الآراء و المتكلمين الذين يتخذون من العمل الفني منبرا للوعظ و الإرشاد ، أو يشرح عقائدهم و مذاهبهم ، و على الأديب أن يكون مهتما بأدبه و فنه ، و لا يفتأ يسعى نحو الأفضل و إن كلفه ذلك جهدا كبيرا من سعى إلى الجمال في الفن الأدبي و ذلك بعد الخضوع لسحر اللفظ على حساب المعنى ، و بالتوفيق بين الشكل والمضمون توفيقا متكاملا يؤدي ما يراد من غاية سامية و أخلاقية"[1].

<u>-جمالية الخطاب القراني:</u>

و الذي يثير الاهتمام و يلفت النظر ما يعرف بالتصوير القرآني و هو " التناسق القائم على تقنية توزيع المشاهد ، و الظلال و الأجواء و وسيلته في كل ذلك الألفاظ و الموسيقى الكامنة في التركيب "[2] و بذلك يسمو الإعجاز فيه . " و ارتكزت أدبية الخطاب القرآني على فنية التصوير بأبعادها اللونية و الإيقاعية ، و الحركية ، انسجاما مع منزعها التوصيلي الفطري الذي يعرض المعنى صورة ، و الأثر حركة و الحالة مشهدا شاخصا للخيال "[3] ، فأدبية الخطاب القرآني تستولي على الوجدان لانسجامها التام مع الفطرة الإنسانية ، و لاستفزازها لبؤرة الشعور بما في الخطاب من دلائل و إيحاءات .

---

[1] ـ حسين الصديق : فلسفة الجمال ومسائل الفن ، المرجع السابق ، ص 266 – 267 .

[2] ـ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، ط7 ، 1983 ، ص96-97 .

[3] ـ سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت، م3، ط 12، 1986 ، ص 1011 .

لقد ربط سيد قطب أدبية الخطاب القرآني بمباحث ، كانت في حيز الدراسات الأدبية الوضعية، فالقصة القرآنية بطابعها الفني و بعناصرها الأدائيـة من شخوص ، و مواقف ، و سرد ، وغيرها كانت من جملة المباحث التي وقف عندها سيد ، و حاول تأصيل الرؤيا فيها على ضوء الإنجازات النقدية و التحليلية المعاصرة ، و هو بذلك قد دفع بالدرس الجمالي القرآني في طريق مشوق يجنى منه دون شك كثيرا من الثمار اليانعة التي ستؤكد علو كعب البلاغة القرآنية .

و يرى مالك بن نبي أن أدبية القرآن قد تجسدت في ذلك الإنجاز الرائع الذي حققه الخطاب القرآني على مستوى التعبيرية ، و الذي تجاوز به الأنماط القولية التي كان العرب يألفونها ، لقد أحدث الخطاب القرآني كما يقول مالك بن نبي : انقلابا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير ، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون ، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم أو موضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد"[1].

لقد تخطى القرآن بتفرّد و تميّز نسيجه البنائي الإمكانيات الجمالية الأدبية التي أسستها اللغة العربية لنفسها طيلة قرون ، حتى أنه يمكن اعتبار الخطاب القرآني ثورة تجديدية في الأطر الجمالية و البلاغية التي كانت قبله ، ثورة لا تقل أهمية عن الانقلاب الجذري الذي أحدثه القرآن في المجتمع العربي الجاهلي و في العالم كله ، مؤكدا أن الخطاب هو أقوى مرجعيـات التغيير و البناء .

[1] ـ مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط4 ، 1984 ، ص 185 .

" و الخطاب القرآني يتمتع بقدرة كبيرة على استيعاب المفاهيم ، والأنماط اللفظية غير العربية و تكيفها مع ما ينسجم وروح اللغة العربية "[1] ، يظهر ذلك على مستوى الأسماء الأعجمية خاصة (أسماء الرسل من بني إسرائيل) .

و نجد الأدبية القرآنية مع " محمد أركون" تنحو منحى فكريا ، فصوت العاطفة فيه لا يخبو تماما ، و لكنه يتذرع بالعقل ، فهما للظاهرة القرآنية و تعريفا لها ، وتفكيكا للخطاب القرآني بأدوات معرفية جديدة كخطوة توسع فيها الصلات الجدلية بين الديانات الكتابية في العالم .

و أركون يحدد المرتكزات النوعية التي تقوم عليها أدبية الخطاب القرآني ويجملها في كونه :

1- " صادقا : إذ هو فعال في النفس البشرية التي بقيت بمنأى عن خطاب آخر يفتح لها منظورا مشابها .

2- فعالا : إذ هو يربط الإنسان بالزمن البدائي و يخلق بنفسه زمنا مثاليا ، هو زمن الوحي ، زمن السلف الصالح الذي يستقطب إليه وعي الأمة، سعيا إلى تحقيق واقع الهداية .

4- تلقائيا : إذ هو انسياب متتال لتقنيات لا نحتاج في التدليل عليها إلى برهان ، وإنما نحتاج إلى التماس أوجه ملاءمتها لتطلعات الفطرة البشرية ، فهي قد جاءت لمخاطبتها ، فحداثية القرآن حداثية جمالية و أدبية ... أمكنها ليس فقط أن تتجاوز موقف الرفض و الخصومة الذي وقفه منها المكذبون زمن النزول أو من نجم من بعدهم من الطاعنين ، بل لقد تأتى لخطابية القرآن أن تجب أضربا بيانية ترتبط بثقافة العرب الشركية ، كانت مناط تجلة و تفخيم "[2] ، فالخطاب القرآني كينونة قد تمثل على أنها المصدر العلوي عينه الذي يباشر

---

[1] - Mohammed Arkoun ; lectures du coran, édition maison neuve , 1982, p23 .PARIS.

[2] ـ سليمان عشيراتي : الخطاب القرآني ، المرجع السابق ، ص 07

ضمير المتلقي برسالة متكاملة لا تغفل منزعا من منازع الحياة ، و الوجود ، تحريرا للفرد و الجماعة ، من نير الأسطورة و اللامعقول الخرافي ، لقد استوعبت المؤلفات حول القرآن الكريم (التفاسير ، و شرح المتون مثلا) جهدا تواجديا كان في أساسه نشاطا جماليا وروحيا يستنفذه المسلم في إطار جمالي قد أقر لها النص و الزمن بمنزلة السقفية ، لقد ارتبط الخطاب القرآني بجماليات فنية من حيث الأسلوب البلاغي الرائع.

-<u>نتائج هذه الورقة البحثية:</u>

1- الجمال زئبقي في تعريفه , ضروري في كثير من المعارف و العلوم.

2- كان للفلسفة الاسلامية دور فعال في إبراز قيمة الدراسات الجمالية .

3-الادب بفنونه و علومه اللغوية الميدان الخصب التي تنمو فيه بذور الاتجاهات الجمالية.

4-الخطاب القرآني القمة السامقة التي حوت فنون القول الجمالية و هو المنبع الذي نهل منه البلاغيون العرب في التنظير و الدرس و التطبيق لاستلهام الرؤية الجمالية قولا و تصويرا و معنى ومبنى , لانه كلام الله عز و جل المعجز.

5-المجال في الدراسات الجمالية لا يزال مفتوحا خاصة مع تطور النظريات الخطابية.

6-علم الجمال يتقاطع مع الكثير من العلوم و الفنون و المعارف الانسانية.